المحاضرة رقم 09 :

المنجزات الحضارية للعراق القديم (المجتمع – المنجزات الثقافية)

1. المجتمع الرافديني : ويتم تناوله عبر الحديث عن :

*. فئات المجتمع : إنّ التكوين الاجتماعي للعراق القديم هو نتاج تاريخ طويل من التمازج السكاني ، حيث سكن المنطقة أجناس بشرية مختلفة و متعددة الأعراق، و يمكن التمييز بين عنصرين أساسيين من خلال مخلفاتهم المادية و الكتابية و هم السومريون و الساميون (الأكاديون –البابليون و الأشوريون) ، يضاف إليهم عناصر بشرية فرعية كانت أقل تأثيرا في الأحداث التاريخية بالمنطقة كـ "الكاشيين" و" الجوتيين" و "السوبارتو". [1]

و بدت بلاد الرافدين _طيلة تاريخها_ و كأنها عالم للمدن السومرية و السامية (الأكادية و . البابلية . الاشورية . الكلدانية) ،و لكن في الخلف كان السكان الرحل يلعبون دورا أساسيا باستمرار، حيث لا يُذكرون إلاّ عند تماسهم مع الحضر ، إذ تميزوا بوضع مستقل و حرية متبادلة ، و لكن أساليب معيشتهم كانت تؤدي الى المنازعات ، و بفضل النصوص المكتوبة تبيّن وجود قبائل العموريين و الأراميين منذ 2300ق.م . [2]

*. **طبقات المجتمع في بلاد ما بين النهرين** : تشكّل مجتمع وادي الرافدين أساساً على طبقتين رئيستين تندر أوجه المقارنة بينهما (التشابه) هما : الأحرار والعبيد ،و ضمّت طبقة الأحرار فئات وشرائح عديدة من المجتمع منها الحاكمة والمتنفّذة، ومنها المحكومة التي ضمت عامة الناس، وتقف على رأس الفئة الحاكمة الأُسرة المالكة التي اكتسبت وفق ملحمة الخليقة مركزاً خاصاً باعتبار الملك نائب الإله في أرضه يتمتع بالتفويض الإلهي، وبذلك أصبح مصدر السلطات والامتيازات، و تلي الأُسرة المالكة حاشية الملك من النبلاء وكبار رجال الدولة من مدنيين وعسكريين وكبار الكهنة، أي الفئة الارستقراطية. وكانت لهذه الفئة جميع الحقوق والامتيازات وفق القوانين والأعراف والتقاليد السائدة. [3]

وحسب الدارسين يمكن تقسيم المجتمع في أغلب الفترات التي مرت بالمنطقة كالآتي :

– **طبقة الأحرار**: تطلق عليهم النصوص اصطلاح "الأولياء awilu" ومنهم الملاّك في الريف والمدن ، والتجار والفنانين والعمال وغيرهم من أصحاب المهن والحرف، وتثبت لهم الشخصية القانونية منذ ولادتهم حتى وفاتهم. [4]

[1] ـ غيث حبيب خليل ، "التكوين السكاني للمجتمع العراقي القديم حتى سقوط بابل 539 ق. م " ، مجلة آداب الفراهيدي ، جامعة تكريت ، العدد 01 ، السنة الأولى ، 2009 ، ص310.

[2] ـ عبد الكريم عبد الله ، " ملامح الوجود السامي في جنوب العراق " مجلة سومر ، العدد 30 ، 1974 ، ص262.

[3] ـ سمير العيداني ، العلاقات الحضارية بين مصر و شعوب بلاد الرافدين ، ص ، ص371-374 ـ بتصرف ـ

[4] ـ يونس محمد فتاح ، "نشأة و تطور المجتمع الريفي في العراق القديم "،مجلة دراسات في التاريخ و الآثار، ، جمعية المؤرخين و الأثريين في العراق ، العدد 06 ، 1989 ، ص126 هاري ساكز ، المرجع السابق ، ص71.

- **طبقة الـ "مشكينو"**: و تدل النصوص المختلفة على وجود هذه الطبقة بهذا الاسم، "مشكينو" أو "مسكينو"- مواطن الدرجة الثانية- وتقابلها بالعربية كلمة (مسكين) وهم الفقراء ، ويقعون في أسفل السلم الاجتماعي ، و يتشكلون من الأحرار الذين كانت تهددهم حياة العبودية بسبب صعوباتهم المعيشية. [1]

. **الرقيق** :عرف العراقيون القدماء نظام الرق منذ عصور مبكرة من تاريخهم القديم ، وقد وردت الإشارة إلى العبيد و الإماء في أقدم النصوص المسمارية المكتشفة والتي يرقى تاريخ عدد منها إلى القسم الأول من الألف الثالث قبل الميلاد إلا أن نسبة عدد العبيد والإماء إلى عدد سكان البلاد لكان قليلاً ، و لاسيما في العصور المبكرة ثم ازداد العدد تدريجيا وبخاصة بعد أن زادت الحروب والحملات العسكرية وما جلبته من أسرى من البلدان المختلفة الذين أصبحوا عبيدا ،و كانت نسبة الإناث من العبيد إلى الذكور كبيرة تصل إلى ثلثي العدد الكلي ، نظرا لفائدة الإناث المزدوجة . وكان العبيد، ذكورا وإناثا ، يعدون ملكا خاصا للمالك يتصرف بهم. [2]

*. **-الأُسرة و دور المرأة في بلاد ما بين النهرين:** تعدّ العائلة عند البابليين و الأشوريين عائلة أبوية ، أي أنّ للرجل فيها حقوقا تفوق حقوق المرأة ، و لكن هذا الامتياز لم يصل الى حد استعباد المرأة أو إخفاء دورها الاجتماعي أو الاقتصادي ، فقد ضمن القانون العراقي القديم للمرأة حقوقها الاجتماعية و الاقتصادية قبل الزواج و بعده بصورة واضحة ، إذ منع الرجل من حق تطليق المرأة التعسفي أو الكيفي (كيفما يشاء) ، و حصره في حالات استثنائية مقابل منح المرأة حق طلب الزواج. [3]

أما عن الميراث في العراق القديم ، و بخاصة في العهدين البابلي و الأشوري فقد كان للأولاد الذكور الأحرار فقط ، وكان الأبناء الأحرار يتقاسمون التركة بالتساوي مع منح الأكبر بعض الامتيازات، كأن يكون له حق اختيار الحصة الأولى أو منحه حصة إضافية، كما يحق للأب قبل وفاته ترك وصية تتضمن تخصيص حصة من تركته لإحدى زوجاته أو ابنه المفضل، فينقص ذلك الجزء من التركة أولا ويُقسم الباقي بالتساوي بين الورثة ، وبالنسبة للأخوات غير المتزوجات كان الأخوة يقتطعون حصة من التركة لتغطية المهر قبل اقتسام التركة بينهم، لذلك فالأرجح أن حصة الفتاة من الإرث هو مبلغ مهرها، مع ملاحظة أنّ الأبناء بالتبني لا يحق لهم المشاركة في التركة إلا إذا ترك الأب وصية رسمية . [4]

[1] - ل . ديلابورت ، المرجع السابق ، ص 71

[2] - طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج01، ص ص536- 537

[3] - سبتينو موسكاتي ، المرجع السابق ، ص97 و أنظر: رضا جواد الهاشمي ، "القانون و الأحوال الشخصية " ، حضارة العراق ، ج02 ، ص87-88.

[4] - - شاكر محمود إسماعيل ، " تطور علاقات الترابط الاجتماعي في المجتمع العراقي القديم" مجلة ديالى ، العدد30، 2008،ص17.

2 . الجانب الثقافي : ويشمل المظاهر الآتية :

أ . الأدب العراقي القديم: خلّف العراقيون القدامى تركة ضخمة مدونة على الألواح الطينية تميّزت بتنوع الموضوعات المسجّلة عليها ما بين الأساطير و الحكم و الأمثال و النصائح و التراتيل و الصلوات و الأدعية و بعض القصص و قصائد الغزل و المرثيات التي تسجل أحداثا تاريخية تتصل بالكوارث التي حلت ببعض المدن العراقية ، و تمثل هذه المدونات الأدبية نسبة ضئيلة من الكتابات التي وصلتنا إذ تكون غالبية الكتابات من نصوص اقتصادية و إدارية. [1]

وككلّ أشكال الأدب عند شعوب الشرق الأدنى فقد خاض الأدب العراقي في مواضيع مختلفة كأدب الأساطير و الذي يتضمّن نشأة الخليقة و أصل الوجود و أساطير ما بعد الموت و أدب القصة و الحكمة و الملاحم و البطولات و أدب المفاخرة و أدب الحب و الغزل و حتى أدب السخرية و الفكاهة و القصص المروية عن لسان الحيوان و المقالات و الرسائل.

هذا و حوت الوثائق المسمارية العديد من الأساطير و القصص، خاصة في مكتبة الملك الأشوري " أشور بانيبال الشهيرة "، و منها "أسطورة الخليقة البابلية" سماها البابليون " إينوما . إيليش " و ملحمة " جلجامش " و قصة الطوفان و قصة آدابا من النصوص الأدبية التي تتّصل بموضوع العدل الإلهي ، ما اصطلح الباحثون على تسميته باسم " قصة أيوب البابلي " أو " التقي المعذب " و مطلعها في الأصل البابلي " لأمجدنّ رب الحكمة "، و يسجّل أنّ الأدب العراقي اشتمل على أدب السخرية و أشهر نماذجه ما عرف بـ " الفقير من نفر ". [2]

ب . **. العلوم و المعارف** : يمكن القول أن كلاّ من البابليين و الأشوريين قد برعوا في كثير من المعارف العقلية التي فرضتها بيئتهم الجغرافية و نظمهم السياسية و الدينية و كذلك حاجتهم الاقتصادية اليومية و من أمثلتها العلوم الآتية :

*. **. الرياضيات** : ما حققته العلوم الرياضية لا يقل أهمية عن غيرها من جوانب الفكر و الأدب الذي برزت فيه الحضارة العراقية القديمة ، و دلّت النصوص على مقدرة سكان بلاد الرافدين . البابليون خاصة . في قياس الأبعاد الظاهرة بين النجوم و غيرها من الحسابات الفلكية على تقدّمهم في معرفة الرياضيات ، حيث إضافة إلى معرفتهم بالنظام الستيني و النظام العشري ، فقد قاموا بالعمليات الحسابية كالجمع a-naو الطرح a-lو الضرب a-raو القسمة و مضاعفة الأُس و استخلاص الجذور و حل المعادلات المركبة. [3]

[1] ـ أحمد أمين سليم ، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم .مصر و العراق ، ص 445.

[2] ـ للتفصيل في الأدب العراقي القديم يراجع : طه باقر ، طه باقر ، "مقدمة في أدب العراق القديم" ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، العدد 06 ، 1975 ، ص108. و أنظر : سمير العيداني ،" الإبداع الأدبي في مصر القديمة و بلاد ما بين النهرين ـ دراسة مقارنة " ، مجلة حضارات الشرق الأدنى القديم ، العدد الثاني ، السنة الثانية ، أكتوبر2016 ، الجزء الثاني ، ص ،ص593-626.

[3] ـ فاروق ناصر الراوي ، العلوم و المعارف ، حضارة العراق ، ج01 ، ص295. وأنظر : عبد العزيز صالح ، المرجع السابق، ص595.

القمحة	0.46 غراما
الشاقل الصغير	140 غراما
المينيت	2.805 غراما
نصف الشاقل	4.208 غراما
المينيت المزدوجة	5.621 غراما
الشاقل	8.416غراما
المينا	505 غراما
الوزنة	30.505كيلوغراما

الأصبع		**0.0165 متر**
يد البنّاء	10 أصابع	0.165 متر
اليد المفتوحة	15 أصبعاً	0.2475 متر
القدم	20 أصبع	0.330 مترا
الذراع	30 أصبع	0.495 متر
القصبة	6أذرع	2.97 متر
الشاخص	12 ذراعاً	5.94 متر
نصف الشريط	60 ذراعا	29.70 متر
شريط الماسح	120 ذراعا	59.40 متر
الفرسخ	180 شريطاً	10692 متر

جدول01 : **وحدات الأوزان / الغرام** **جدول 02** : **وحدات قياس المسافات /المتر**

الشكل : 10: جدولي وحدات قياس الأوزان و المسافات وما يقابلها بوحدتي الغرام و المتر

(أنظر : ل ديلابورت ، المرجع السابق ،ص. ص 229 .231 . المؤلف . بتصرف .)

و يرى العديد من المختصين أن المبادئ الأساسية للهندسة قد عرفت باكراً في بلاد الرافدين، حيث كان لهم صيغة لإيجاد مساحة المثلث و المنحرف و الأشكال ذات الجوانب الأربعة غير المنتظمة، و كانوا يقومون برسم صورة مساعدة تُقاس بسهولة ثم تضاف إليها مساحة ما يقع خارجها لحساب الشكل ذي الزوايا و الأضلاع كثيرة العدد ، و كذلك عرفوا حساب حجم المكعب و الموشور ، كما عملوا لحساب مساحة الدائرة وحجم الكرة قدروها π بـ 3(72) .[1]

*. **علم الفلك** : أدت ملاحظة الأفلاك إلى تطوّر عظيم في المعلومات الخاصة بالفلك ، و لا سيما خلال العصر الكلداني، فهناك عدة جداول عن المعلومات الفلكية تُبرهن عن معرفة الظواهر السماوية الواسعة الشمول ، و كان للبابليين منذ أقدم العصور مراصد حقيقية مُقامة على رؤوس أبراج المعابد ، كما كانوا يقيسون مدارات النجوم بالساعة المائية ، و يسجلون حركات الشمس والقمر فصارت لهم في القرن السابع قبل الميلاد القدرة على التنبؤ بما ينتابها من خسوف أو كسوف ، و أطلقوا على مجموعات الكواكب أسماء أخذها عنهم اليونان لاحقاً ، و كان علم الفلك الأساس الذي بني عليه التقويم المشكّل من اثنى عشر شهرا قمريا .[2]

[1] - ل.ديلابورت ، المرجع السابق ، ص ص228-229 - بتصرف -

[2] - د. ج وايزمان ، " بابل و أشور مركزان علميان قديمان " ، مجلة سومر ، ص99-100

و لاشك أنّ عملية رصد الكواكب والنجوم و البروج وتدوينها في نصوص فلكية قد اعتمدت على آلات و أدوات دقيقة ساعدت الفلكيين في أعمالهم الرصدية منها : **العدسة و الساعة المائية و الإصطرلاب** ، و برع الكلدانيون في علم الفلك ، فربطوا أيام الأسبوع بـ"عطارد" و"الزهرة" و "المريخ" و"زحل" و "الشمس" و"القمر"، و ثبتوا أسماء البروج السماوية في اثنى عشر برجاً ، و صنع أحد كهنتهم الفلكيين و يسميه "سترابون" "نبور . بانوس" "نابو–ريمانو" حوالي 500 ق .م جداول لحركات الشمس و القمر و بيّن مقادير حركتها في اليوم و الشهر و السنة ، كما حسب الخسوف ، و بيّن أن طول السنة 365 يوما و 6 ساعات و 15 دقيقة و 41 ثانية (أطول من السنة العالمية بـ 26 دقيقة و 55 ثانية) .[1]

*. **الطب** و **الصيدلة** : رغم أن العلوم الطبية ارتبطت بالعرافة والسحر، إلاّ أنّ النصوص المسمارية المكتشفة تؤكد لنا سمو هذا العلم عند العراقيين القدماء ، و خير دليل على ذلك ما جاء في قانون "حمورابي" الذي ميّز بين الطبيب و الجراح و استنتج الباحثون من الألواح الطينية ذات الطابع الطبي ،أنّهم كانوا على معرفة بالأدوية النباتية و المعدنية و أنهم استخدموها بأشكال مختلفة خارجيا كالكمادات و الدلك بالزيت و داخليا كالجرع أو الحقن الشرجي .[2]

و دلت النصوص الخاصة بالوصفات الطبية استعمالهم لمواد نباتية كالجذور و البذور و اللحاء و الأوراق و الأغصان و الفواكه و من أكثرها شيوعا الثوم وعرق السوس و أنواع أخرى جاءت في شكل قوائم معجمية كما استخدموا المواد الحيوانية كالألبان و اللحوم والفضلات و استخدموا الطيور بأنواعها كالبوم والنعام والصقر و الغراب، و استخدموا كذلك مستخرجات الأصداف و أكثرها شيوعاً صدف السلحفاة ، هذا إضافة إلى أنواع الأملاح و الأحجار و المعادن (و لعل معرفتهم بالكيمياء هي التي مكّنتهم من استخلاص أدوية من المعادن والأملاح) .[3]

*. **الكيمياء** : أورد المختصون ومنهم المؤلف "طه باقر" على أنّ الكيمياء تدخل ضمن المهارات التقنية ، و قد ظلت ضمن العمليات الصناعية و أساليبها ، و بخاصة عبر عملية إذابة و صب و سبك بعض المعادن ، أو عبر مزجها لتكوين معادن مركبة أو مزيجة كالبرونز و الإلكتروم و صناعة الزجاج و التزجيج وغيرها .[4]

كما نجح سكان بلاد الرافدين في العديد من الصناعات المرتبطة بالعمليات الكيميائية و منها المطهرات و صناعة الصابون عبر استخراجه من الزيوت النباتية و إضافة الكبريت و المواد الصمغية، وفي ذلك يرى "ليفي

[1] ـ شيماء علي أحمد النعيمي ، الفلك في العراق القديم من القرن السابع الى القرن الرابع قبل الميلاد ، رسالة دكتوراه ، إشراف : علي ياسين الجبوري ، جامعة الموصل ، 2006 ، ص23-24. و أنظر: فاروق ناصر الراوي ، المرجع السابق ، ص323.

[2] ـ رينيه لابات ، "الطب البيلي و الأشوري" ، تر: وليد الجادر ، مجلة سومر ، مج04 ، 1968 ، ص192.

[3] ـ نسرين أحمد عبد. هيفاء أحمد عبد ، " معالجة بعض أمراض العيون و الأسنان في الطب الأشوري " ، مجلة دراسات موصلية ، العدد 34 ، 2011 ، ص 12.

[4] ـ فرج بصمه جي ، "الكيمياء و تكنلوجياتها في العراق القديم ، مجلة سومر ، مج 02 ، 1969 ،ص 104. و أنظر: فاروق ناصر الراوي ، المرجع السابق ، ص340.

بروفنسال" أنهم صنعوا الصابون البارد ، أو شبه المغلى بمواد تتضمن الغليسيرين و الماء باعتماد الحالتين المتخثرة والسائلة ، كما استعمل في ذلك زيت "الخروع" ، ثم يتم الفصل بين الغليسرين و الصابون عبر تنقية "الترسيب الملحي".[1]

جـ . الفن الرافديني : يمكن تناول الفن العراقي القديم بوصفه نشاطا يرتبط بالدولة و المعابد، إذ تنتشر نماذجه في القصور و المعابد الضخمة المكرسة للآلهة القومية و آلهة المدن الرئيسة، و أهم فنون المنطقة هي **عملية النحت بأنواعه** و من أمثلة النحت البارز في هذه الفترة هي تلك المواضيع المنفّذة على ما يعرف بأحجار الحدود المعروفة باسم "كودرو" و هي أحجار وظيفتها تحديد ملكية الأشخاص أو مساحات الأرض و كانت تودع في المعابد ، حيث شاع استعمالها في العهد الكاشي ، و فنّياً خُصّص الجزء الأعلى منها لنحت صور الآلهة و رموزها.[2]

أما عن النحت الأشوري المجسم فقد تجسد فيه حب ملوكهم للظهور بهيئة الأقوياء جعل تماثيلهم القليلة تطغى عليها هذه الصفة التي نالت من المرونة تلك التماثيل وحركتها ، كما دفعتهم إلى جعل تماثيلهم مدونات لإنجازاتهم خاصة الحربية منها ، ومن تماثيل الأشوريين تمثال الملك "شلمنصر الثالث" (858-824ق.م) ويبلغ ارتفاعه مترين ، منحوت من حجر البازلت وقد عثر عليه في "نمرود" يُظهر الملك وهو حافي القدمين ،كما تميزت الرسومات والمنحوتات البارزة الأشورية بإظهار القوة العضلية فيها ، فتبدوا العضلات مفصلة فيها بشكل واضح لدى الأشكال الإنسانية والحيوانية على حد سواء ، كما جرت العادة على تصوير الأسود والوحوش المجنحة برؤوس بشرية ذات لحى ووضعت هذه المنحوتات الضخمة في مداخل القصور الملكية ، من اجل إثارة الرهبة في نفوس الأعداء.[3] **(أنظر الشكلين 11 و12)**

هذا و يشير عدد من الدارسين للفن الأشوري و منهم "سبتينو موسكاتي" و "أنطوان مورتكات" الى أنّ مواضيعه يغلب عليها الطابعين الدنيوي و الحربي إذ يقول الأول : " **و الموضوعات الدنيوية (غير الدينية) كموضوعات الرسوم البارزة ، متوافرة في الفن الأشوري بل غالبة عنه و هي تكسبه طابعا عسكريا بحتا يتماشى تماما و عقلية الشعب الأشوري**".[4]

د . العمارة : امتازت حركة التطور المعماري في العراق القديم بتفاعل كامل و حيوي بين المادة الأولية التي تصنع منها المواد الإنشائية و بين طبيعة البيئة و المناخ اللذين يحيطان بالمنشآت المعمارية حيث عرف إنسان العراق القديم وسائل تحقيق أهدافه العمرانية بالتجربة و اكتساب الخبرة المتراكمة ، و في هذا كانت مادة الطين في شمال بلاد النهرين و جنوبه المادة الرئيسية الأوفر و الأكثر اقتصادا و الأسهل في عملية التطويع و التشكيل بأيدي

[1] - فاروق ناصر الراوي ، المرجع السابق ،ص ص353-354 - بتصرف - .
[2] - نعمت إسماعيل علام : فنون الشرق الأوسط القديم ،دار المعارف، القاهرة ، ط6، ،د: ت ،ص149.
[3] - طارق عبد الوهاب مظلوم ، النحت من عصر فجر السلالات حتى العصر البابلي الحديث ، حضارة العراق ، ج4 ، ص 65 .
[4] - سبتينو موسوكاتي ، المرجع السابق ، ص106- بتصرف - .

البنائين كما في أنامل النحاتين و الفخاريين ، حيث تم استعمال اللبن المحدب في عمليات الإنشاء و معه الطين كوسيلة ربط و الإسفلت كمادة عازلة في الحمامات و أحواض المياه و كذلك الزفت و الجص بدرجات أقل .[1]

الشكل:11: المخلوقات الأشورية المركبة (الحارسة)

الشكل :12: المسلة السوداء لـ"شلمنصر الثالث"

و في الشمال استخدم الأشوريون إضافة إلى اللبن و الطين الأحجار في البناء خاصة في القشرة الخارجية لأسوار المدن مثل سور "نينوى" و القصور و المصاطب مثل "القلعة الملكية " في "خرسباد" و في أكساء قواعد الأبراج الدفاعية مثل "أشور" أو أعمال الجسور والقناطر و أقواس الأبواب ، كما في حصن "شلمنصر" في "نمرود" أو قناطر مياه "سنحاريب" شمال "الموصل" أو في تبليط طرق الارتقاء كما في معبد "نبو" في "خرسباد" .[2]

و إن من أهم المجاميع البنائية في الفترة قيد الدراسة هي المعابد، حيث يُلاحظ تعدّد أنواعها و أهمّها المعابد للآلهة الرئيسية المنفردة و هي عادة معابد أرضية في مناطق مركزية أو هناك المعابد المرتفعة فوق المصاطب ، المشيّدة من اللبن بطبقة أو طبقتين و هناك المعابد الملاصقة للزيقورات ، و هي معابد أرضية أو منخفضة تكون في الصحن المحيط بالزيقورة و لها واجبات تكميلية ، ثم لدينا المعابد المرتفعة "الزيقورات" (**أنظر الشكل13**) و تكون فوق ارتفاعات اصطناعية يشكل المعبد الطبقة الأعلى و لا تقل طبقاتها عن ثلاث طبقات دون احتساب المعبد .[3]

و اشتهر من **المباني الملكية** في العصر الأشوري قصر الملك "آشور ناصربال الثاني" (حوالي 879 ق.م) على نهر دجلة بـ"نمرود"، و الذي استخدم في عهود "سرجون الثاني" و سنحاريب" ، كما اشتهر من هذه الفترة **حصن** الملك "شلمنصر الثالث"(**أنظر الشكل 14**) ابن "آشور ناصربال الثاني" و المشيّد في الزاوية الجنوبية

[1] ـ أنطوان مورتكات ، الفن العراقي القديم ، تر : توفيق سليمان ، مطبعة الإنشاء ، دمشق ، د:ط، 1967م ،ص 271.
[2] ـ مؤيد سعيد، العمارة في عصر فجر السلالات إلى نهاية العصر البابلي الحديث ، حضارة العراق ، ج3 ، 101.
[3] ـ محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص 306 .

الشرقية من "نمرود" مقابل الحي الملكي ، و كان هذا الحصن واسعا و يشمل عدة ساحات و قاعات و مداخل ينتقل منها عبر بعضها حتى قاعة العرش.[1]

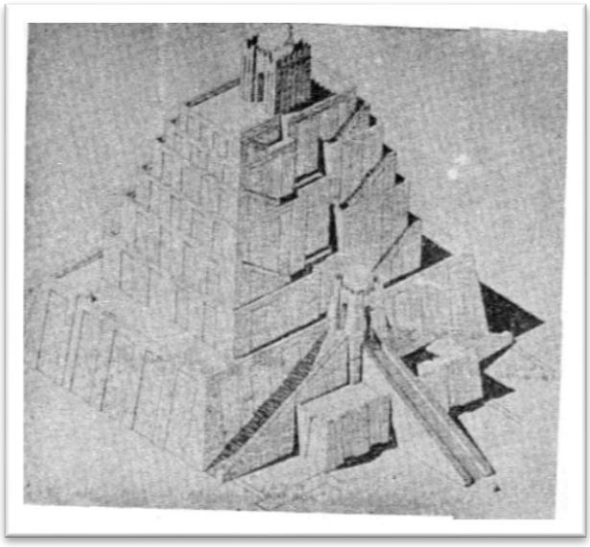

الشكل :13 : زيقورة نابونائيد الكلداني كما صممها السير ليونارد وولي.

الشكل :14: مخطط حصن "شلمنصر الثالث"

و يعدّ العصر الكلداني . حسب كثير من المختصين . عهد الفخامة بالنسبة للمظهر العمراني ببلاد الرافدين ،خاصة عهد "نابوبلاسر" و ابنه "نبوخذ نصر الثاني" ، إذ قاما بإعادة تخطيط مدينة "بابل" مع التركيز على القصور الملكية ، و ذلك عبر إقامة شارع رئيسي للربط بين القصور و وسط المدينة و هو "شارع الموكب" ، كما ركزوا في عمارتهم على "برج بابل" الشهير و معبد الإله "مردوخ"، و من أهمّ ما تمّ الكشف عنه في مدينة بابل "القصر الجنوبي" الذي بناه "نبوخذ نصر الثاني" على مساحة 52 ألف م^2 فوق مصطبة عالية ، و ترتفع جدرانه من حوالي 12 إلى 15 مترا ، و لهذا القصر خمس ساحات متتالية أكبرها الساحة الثالثة الوسطى ، و يبلغ ضلعها 60 مترا و تلتصق في ضلعها الجنوبي بقاعة العرش الكبرى ، و هي بمساحة (55×35م) و لها ثلاثة أبواب.[2]

د . الجانب الديني : تتميز ديانة بلاد الرافدين بالديمومة لكثير من أفكارها الدينية و التشابه في الاعتقاد في قضايا الخلق و مصير الروح بين الأقوام المتعاقبة على حكم المنطقة ، و بسبب ضيق المجال، سأختصر الموضوع عبر تقسيمه كالآتي :

*. **المعتقدات الدينية** : و تشمل الأفكار الدينية التي اشتركت في تقديسها الشعوب المشكلة لحضارة المنطقة ، و من المظاهر المميّزة للفكر الديني في ما بين النهرين صفة الاستمرار التاريخي ، فإنه عندما بلغ طور النضج في

[1] - سبتينو موسكاتي ، المرجع السابق ، ص109..
[2] - ل.ديلابورت ، المرجع السابق ، ص175 و كذا أنظر : مؤيد سعيد ، المرجع السابق ، ص 177 .

العصور التاريخية في الألف الثالث قبل الميلاد ، لم يطرأ عليه تغيير حتى زوال البابليين السياسي فالمعبودات التي قدسها سكان العراق في العصور التاريخية المتأخرة (البابلي الأشوري و الكلداني) هي-بوجه التقريب- المعبودات نفسها التي قدسوها في الأدوار القديمة ، أما التغييرات التي نجدها فرض في علاقة الآلهة بعضها ببعض ، و كذلك مكانة الآلهة و أهميتها تتغير تبعا للتغييرات السياسية ، فعندما تبلغ مدينة قوة سياسية و تبسط سلطانها على المدن الأخرى و يعظم عند ذلك شأن إلهها ، فيعمل الكهنة على تحديد علاقة هذا الإله بغيره من الآلهة ، و كثير ما يعمد الكهنة إلى تحوير المعتقدات الدينية لتتفق مع التغيير الحاصل في مكانة الآلهة .[1]

و اعتقد الإنسان العراقي القديم بالقوى الخيرة و الشريرة، التي نسب إليها التحكم في عالمه الدنيوي و الأخروي ، و حاول أن يحدّد مفهوما و ما يلزم لاكتساب رضاها ، حيث نسب لهذه القوى صفات وعواطف بشرية و أصبغ عليها نفس طريقة حياته-إلاّ أنّه رفعها عن الجنس البشري بأن منحها الخلود- و نسب الصفات الشريرة إلى عالم الأرواح الخبيثة و التي جعلها قوى أسمى من شرورها عبر وسائل كالسحر .

و اعتمادا على الأساطير البابلية فالمعتقد السائد أن عنصر الماء أزليا و إلهيا (الإله أبسو)، و تولد من الماء عنصر آخر هو عنصر السماء (آنو) و الأرض متحدين و كانت الأرض والسماء إلهين كذلك و تولد من السماء و الأرض المتحدين عنصر غازي هو الهواء الممتد الذي فصل بتمدده السماء عن الأرض ، و هنا تم تجسيم الهواء إلها هو "إنليل" و تولد من الهواء القمر و من القمر ولدت الشمس و جسموا كلاّ من القمر والشمس وعدّوهما إلهين، و بعد انفصال الأرض عن السماء نشأت أنواع الحياة الأخرى من نبات و حيوان ثم الإنسان ،كما اعتقدوا أن أصل الحياة الأخرى و الأشياء نشأ من اتحاد الهواء و التراب و الماء بمساعدة الشمس. [2]

لم يشك البابليون في حتمية الموت و فرضيته على البشر و جميع الأحياء ، و لكن يبدو أنّ فكرة البعث بعد الموت و الجنة و النار لم يعرفوها ، حتى أن فكرتهم في التعبد و تقديم القرابين لم تكن للحصول على الحياة الخالدة بل طمعا في النعم المادية الملموسة في الحياة الدنيا ، و عقيدتهم في ذلك أن الإنسان ما دام يعمل صالحا فقد استحق رضي الآلهة و عاش ممتعا بالسعادة، أما إذا أذنب- بقصد أو بدون قصد- فإن الإله حاميه يتخلى عنه فتتلقفه مخلوقات الشر و يتردى في عالم الرذيلة ، أما أفكارهم حول حالة الموتى في العالم السفلي ، فإنه بوجه عام فهو عالم مخيف يكاد يتساوى فيه الموتى و لا قيامة فيه و لا رجعة ، أي أنهم لم يعتقدوا بعالم آخر للثواب و العقاب أي لا جنة عندهم و لا نار كما في الأديان الأخرى .[3]

*. **الآلهة** (المعبودات): و كانت الحياة الدينية في بلاد الرافدين تقوم على تعدّد الآلهة ،و كان يُقدر عددها بأرقام كبيرة ، و في العهد البابلي بلغ عددها 65 إلها ، و كان لكل مدينة بالمنطقة إله تخضع لحمايته ، كما كان لأنواع

[1] ـ أحمد أمين سليم ،المرجع السابق ، ص 396 .و براجع في ذلك : طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج1 ، ص226

[2] ـ خزعل الماحدى ، إنجيل بابل ، الأهلية للنشر ، عمان ، ط1 ، 1998 ، ص 13.

[3] ـ فراس السواح، الأسطورة و المعنى ، دراسات في الميثولوجيا و الديانات الشرقية ، دار علاء الدين ، دمشق ، ط2 ، 2001 ، ص 93.

النشاط البشري آلهة توحي للناس ما يجب أن يفعلوه ، و تدبر له مختلف شؤونه ، و تقوم بحمايتهم ، كما كان لكل ظاهرة طبيعية إله خاص مثل "آنو" إله السماء و الإله "إنليل" إله الهواء و الإله "سن" إله القمر و الإله "أدد" إله العواطف ، بينما كان الإله "أيا" هو الإله المحلي لمدينة "أريدو" السومرية في أقصى الجنوب ، و كان يقتسم مع "آنو" و "إنليل" حكم العالم ،كما يسيطر على الحياة المحيطة بالعالم و هو المسؤول عن طرد الأرواح الشريرة .[1]

و بالرغم من أنّ الديانة البابلية ـ الآشورية تتميز بتعدد الآلهة ، إلّا أنهم في الوقت نفسه كانوا يفردون بعض الآلهة و يفضلونها على الأخرى ، أي أنهم كانوا يعتقدون بمبدأ"التفريد " Henotheism لا التوحيد و مثاله أنّ مردوخ (**انظر الشكل 15**) كان يوصف بأنه تجلي الآلهة في مظاهرها حيث ورد في النصوص الدينية :" **نرجال هو مردوخ المعارك .. و زبابا هو مردوخ المذابح .. و إنليل هو مردوخ الشورى ..و الحكم و شمش هو مردوخ الحق و العدل** " و نفس الأمر يقال على الإله "أشور" عند الأشوريين ، ثم الإلهين "مردوخ" و "نابو" عند الكلدانيين .[2]

الشكل : 15: الإله "مردوخ ". القرن التاسع ق.م . حفائر بابل .متحف برلين .

الشكل 16 : رموز الإله "آشور" التي تتكرر في المخلفات الأثرية (أنظر : . Philip Henri Grosse ,Assyria .her manners .and costumes..P 92)

(أنظر: ل .ديلابورت ، المرجع السابق ، ص 143)

و جرى ترتيب و تصنيف الآلهة في العراق القديم حسب مبدأ فلسفي اتخذ العلاقات الموجودة في العائلة البشرية قدوة له ، إذ صنفوهم في فئتين ثالوثيتين هما الجيل الأول (**الآلهة الكونية**) حيث السماء "آنو" و

[1] ـ أنطون مورتكات ، المرجع السابق ، ص 160 ، و كذلك : فوزي رشيد ، الديانة ، حضارة العراق ، ج1 ، ص 174 . طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج1 ، المرجع السابق ، ص 227.

[2] ـ حامي محروس إسماعيل ، الشرق العربي القديم و حضارته (بلاد ما بين النهرين و الشام و الجزيرة العربية القديمة) ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، د:ط ، 1997 ، ص 107 .و أنظر : عبد الحميد زايد ، الشرق الخالد ، مقدمة في تاريخ و حضارة الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور حتى 323 ق.م ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1966 ، ص 138 .

الأرض "إنليل" و الماء "أيا" ، يقابلهم آلهة الجيل الثاني(**آلهة فلكية**) القمر"زن" أو "سين" والشمس "شمش"و الزهراء "عشتار"و الإله "حدد"(العاصفة).[1]

*. **الكهنة** : لم يكن هناك فرق واضح بين الموظفين المدنيين و الدينيين في العراق القديم حتى نهاية التاريخ البابلي المتأخر ، إذ كان الأمير هو الكاهن الأكبر لإله مدينته ، بينما كان الملك هو الكاهن الأكبر للإله الوطني ، و انعكس التطور السياسي و الاجتماعي التي شهدته الدولتين –البابلية و الأشورية– منذ الألف الثاني قبل الميلاد في تطوّر شؤون المعابد و النظام الكهنوتي، حيث ظهرت طبقات من الكهنة لكلّ منها درجتها و عملها الخاص ، حيث كان من هذه الطبقات ما يختص بأمور التنظيف و التطهير الديني و بعضها بإدارة شؤون المعابد و أملاكها و وارداتها ، و منها ما يتصل بأعمال السحر و العرافة.[2]

و كانت المعابد الكبيرة تضم عددا من الكهنة و على رأسهم "الكاهن الأعلى" وفق ترتيب صارم يفرض على كل فئة وظائف محددة ،و عموما كان الكهنة ينقسمون إلى ثلاث مراتب منهم السحرة ، و هم الذين يستعطفون الآلهة و يعبدون الأرواح النجسة ، و المنجّمون (العرافون) الذين يتنبئون بالمستقبل ثم المغنون الذين يباشرون وظائف كالترتيل و العزف و الأغاني الاحتفالية و الجنازية .[3]

و يقسم المؤلف سامي سعيد الأحمد الكهنة في بلاد الرافدين إلى أربعة أقسام أساسية و هي:

أ–أصحاب المراتب الرفيعة "السانكا" : و منهم "الإينو" و هو رئيس المعبد و الكاهن الأعلى و يختار بطرق خاصة و معه الكاهنة العليا "إينتوم" و تسكن الكاكوم و تحت تصرفها الكاهنات و هي العنصر الأنثوي في الزواج المقدس يضاف لها "الماخو" المسؤول عن المالية و "الشادو" المشرف على أراضي المعبد و "الكاكور" المشرف على مخازن الحبوب .

ب–كهنة القداس : و يتخصصون بالاحتفالات مثل "الأوريكالكو" و هم المسؤولين عن بوابات المعبد .

ج–الكهنة المختصون : بالوظائف المختلفة و منهم المطهرون و المدهنون و الأشيبو المختصون بالتعاويذ و "الكالو" المنشدون .

د–المختصون بالأسرار الإلهية : و منهم العرافون "البارو" و مفسروا الأحلام .[4]

*. **المعابد** : كانت المعابد أماكن الآلهة على الأرض في الديانات و المعتقدات السامية القديمة –عموما– قبل أن تكون أماكن للصلاة و أداء الطقوس و الشعائر الدينية ، و كان الحكام و الملوك يتقربون لهذه الآلهة ببناء معابد لها ، حيث كانت أكبر الآلهة تحضي بأكبر عدد من المعابد و بأوسعها بناء و بأفخمها عمارة .[1]

[1] ـ ألكسندر هايدل ، سفر التكوين البابلي قصة الخليقة "حينما في الأعالي "، تر: سعيد الغانمي ، منشو رات الجمل، بغداد ، ط1 ، 2007، ص118 و أنظر : ل.ديلابورت ، المرجع السابق ، ص 141 ، و أنظر : أنطون مورتوكات ، المرجع السابق ، ص 137.

[2] ـ أنطون مورتكات ، المرجع السابق، ص 362 .

[3] ـ ل-ديلابورت ، المرجع السابق ، ص 150 .

[4] ـ سامي سعيد الأحمد ، المعتقدات الدينية في العراق القديم ، المرجع السابق، ص ص 51-52 ـ بتصرف ـ

و كانت المعابد ذات شكل و حجم مختلفين ، فبعضها كانت مجرد مصليات صغيرة ، تتكون من صف من الدور (الغرف) ، و تشتمل على فناء مكشوف يضم محرابا و قاعدة للتمثال المقدس ، كما كانت هناك معابد تضم عدة أقبية و غرف ، ثم أقيمت المعابد الضخمة ذات التركيبات المعقدة و تخصّ الآلهة الأعظم ، و كانت تضم غرفا لإيواء الكهنة و العاملين في المعبد ، و هنا كانت كل المعابد الرئيسية تشترك في خصائص معينة ، حيث اشتمل كل منها على فناء كبير تحيط به غرف صغيرة تستخدم للإقامة أو كمكتبات (مدارس للكهنة)، و ورشات و مخازن و اصطبلات .[2]

و يعدّ معبد "الإيزاجيلا" في بابل أوسع المعابد و أشهرها ، و هو معبد الإله "مردوخ"، معنى لفظه (ES-Agila "المعبد الذي تناطح ثروته السحاب) و بداخله كانت الحجرة التي يقف فيها تمثال "مردوخ" الضخم و أريكته التي تزن 50 وزنة من الذهب ، و بداخله قاعة ذات أعمدة غطيت جدرانها بالألواح الخشبية ، كما توجد بالمعبد 55 حجرة صغيرة للعبادة منخفضة الارتفاع مخصصة لبقية آلهة المجتمع ، و لقد اهتم الملوك المتعاقبون (البابليون و الأشوريون) في تجديده و ترميمه.[3]

*. **الطقوس الدينية** : كانت الشعائر التي تُقام تقرباً للآلهة متنوعة فمنها الصلوات و تقديم القرابين و الاحتفال بالأعياد الدينية و منها ما يتخذ لمعرفة طالع الإنسان و الوقوف على المستقبل (و هو ما يطلق عليه العرافة و الكهانة)، و منها ما يتخذ لطرد الشياطين من جسم الإنسان و شفاء المرضى (و الذي يدخل نوعه تحت السحر)، وتتنوع أشكال العبادة في العراق القديم ، بحيث منها ما يقوم به الفرد بنفسه بدون وساطة كهنة المعبد كالدعاء و صلاة التوبة ، و منها ما يقام بها تحت إشراف الكهنة كذبح القرابين و ما يتبع ذلك من أعمال و صلاة و حرق بخور و سكب للسوائل المقدسة.[4]

و يتم **التوجه بالصلوات** إلى إله بعينه، عبر تلاوة التراتيل التي تُمجد صفاته الإلهية و منجزاته و تنتهي الطقوس بتسبيحة نمطية للشكر ، كما يمكن أن يتّجه الناس في العبادة إلى الآلهة الشفيعة "لاما LAMA" التي تأخذ بيد المتعبد إلى حضرة الإله ، و يمكن كذلك الابتهال إلى الأرواح الحارسة "شدو" " Shedu" و لاماسو" " Lamasu" ، هذا و إن الآداب البابلية لتكثر فيها الترانيم التي تفيض بالتذلل ، و أكثرها وجدت في صورة "أناشيد التوبة" و منها قول أحد المتعبدين :"**أنا خادمك .. أتضرع إليك و قلبي مفعم بالحسرات ،.. إنك لتقبل الدعاء الحار الصادر ممن أثقلته الذنوب ، فانظر إليّ بعطف و تقبل دعائي** .. ".[5]

---

[1] ـ فوزي رشيد، الديانة. حضارة العراق ، ج1 ، المرجع السابق ، ص 125 .

[2] ـ طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ،ج1، المرجع السابق، ص 278 .

[3] ـ مارغريت روتن ، المرجع السابق، ص ص 128-129 ـ بتصرف ـ

[4] ـ سامي سعيد الأحمد ، المعتقدات الدينية في العراق القديم ، المرجع السابق، ص 54 .و كذلك يراجع : سبتينو موسكاتي، المرجع السابق ، ص 80 .

[5] ـ شيبان ثابت الراوي ، "الطقوس الدينية في بلاد الرافدين حتى نهاية العصر البابلي الحديث" ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) جامعة بغداد ، 2001 ، ص 63.

أما عن **عمليات الدفن** فمن خلال قبور العصر البابلي الحديث بمدينة كيش" وضع الميت بتابوت طيني أو في الأرض و لم تكن التوابيت على طول الجثث لذا كانوا يثنون الأطراف (الرجلين) ، كما نعرف عن دفن الموتى أنه كان في ساحات المعابد كما أوضحت طبقات معبد "نفر" ، و تظهر الطقوس الجنازية من خلال كلام للملك الكلداني "نابونائيد" الذي أمر "**بمسح جثة والده بالزيت و دفنه بملابسه الثمينة المنسوجة من الكتان الأبيض ... و ذبح الخرفان السمان و تقديمها إليه**".[1]

و من أهم **الطقوس الاحتفالية** عيد رأس السنة البابلية الأشورية و المعروفة بـ "**عيد الأكيتو**" ، و قد كانت هذه تُقام في كل سنة في المدن المختلفة مثل : أور و الوركاء و أدلب و آشور و أربيلا و بادتبيرا و بورسيبا و دور شروكين (خورسباد) ، أريدو ، حرّان ، كلخو (نمرود) ، كيش ، لجش ، ماري ، نيبور ، نينوى ، سبار ، أوما . ، و كان العيد السنوي يستمر في بابل حوالي 12 يوما ، أين يسير موكب الإله في أحد شوارع بابل مارا بـ"باب عشتار" ثم عبر شارع الموكب في الربيع من كل سنة ، وهذا العيد كان رمزا للصراع بين قوى الطبيعة حتى تنتصر القوى الخالقة فتزدهر الأرض بالنبات في بداية الربيع.[2]

[1] - مارغريت روتن ، المرجع السابق، ص 83 .

[2] - حكمت بشير الأسود ،أكيتو.. عيد رأس السنة البابلية الأشورية ،المديرية العامة للمكتبات ، أربيل ، ط1، 2011 ،ص ص59- 96 .بتصرف -